إلى متى؟

ها أنا أكتب من جديد! قد يستفسر البعض عن سبب كتابتي لهذه المواضيع المختلفة، أو بالأحرى عن سبب نشري لها و خاصة المواضيع ذات الطابع الشخصي... أما عن الأمر الأول و هو الكتابة، فدعونا نتحدث عن المواضيع الشخصية أولا. إن الإنسان يعيش في هذه الحياة و يمر في مراحل مختلفة، و الحياة خليط من اللحظات السعيدة و الحزينة، نعيشها لحظة بلحظة، و ساعة بساعة. و إنني أرى أنه من الجميل أن يدون الإنسان ما يجده مميزا و مؤثرا من هذه اللحظات، لعله يعود إليها في المستقبل و يستذكر حلاوتها إن كان حلوة، أو مرارتها إن كانت مرة.

أما المواضيع العامة و هو كموضوعنا هذا؛ فإن الغرض من كتابتها هو تطوير الفكر و تحريكه. لا أن نستخدم عقولنا للدراسة فقط، و لا حتى للعمل و كسب الرزق فحسب – ناهيك عمن لا يستخدم عقله أصلا في هذه الأمور، و يستخدمه للتسلية و المتعة لا غير – بل أن نستخدمها لتفهم الوضع و الحالة التي نعيش، حتى نساهم بما لدينا من قدرة على تطوير المجتمع و ترقيته و حل مشكلاته. لا أن نبقى صامتين و مكتوفي الأيدي حيال ما يحدث حولنا من أحداث و تطورات.

و الأمر الثاني و هو النشر؛ فإنني أؤمن كل الإيمان بأن لكل إنسان على وجه هذه الأرض طريقة خاصة يعبر فيها عن نفسه. و ترجع هذه الطريقة إلى اجتهاد الشخص و حركته و مجاراته للتقدم السريع الذي يشهده العالم. و بالنسبة لي فإني أرى الشبكة العنكبوتية الطريقة المثلى لأعبر فيها عن نفسي و أفكاري، و لأعرِّف الناس من حولي على طبيعتي من دون تكلف أو عناء. و هذه إحدى الفلسفات التي يقوم عليها موقعي الالكتروني.

أما العناوين التي كنت قد تحدثت عنها في السابق – و هي من فئة المواضيع الشخصية – فقد ولت و خلت و أصبحت من ذكريات الزمن الماضي. فقد تعودنا على ***الفراق*** و اللقاء. و باتت التكنو و إربد جزءان لا يتجزّءان من نمط الحياة التي أعيش. و أما الأعوام، فها هي تمر كلمح البصر. و لم يكن هناك حتى الآن عام مميز أكثر من ذاك العام في ***عام في عيوني***. و يتبعنا الصيف في ذلك؛ حيث لم يكن صيفي الأخير غريبا من غريمه في ***أنا و الصيف***. و بالنسبة لـ***أنا و هي***؛ فقد كانت تجربة يعيشها معظم طلبة الجامعة في سنتهم الأولى تحديدا. و لم تعد ***هي*** هي ***الدنيا*** التي لطالما أردت. و منها بالتأكيد نتعلم و نستفيد، لا بل و نرتقي حتى نحسن اختيار رفيقة الحياة في المستقبل بإذن الله جلّ و على...

في موضوعي هذا سأتطرق إلى شؤون اجتماعية و اقتصادية و دينية أيضا. و لن يكون للشأن السياسي محل هنا، إذ للسياسة ساسة يديرونها و يحيكوها. و لقد آثرت أن أبدأ بكتابة هذا الموضوع بعد عودتي من ألمانيا، إذ كنت قد شاركت ببرنامج تبادل شبابي استمر أسبوعين كاملين... كانا كافيين لي لأضع تصورا واضحا – و لو كان بسيطا – عن الحضارة الغربية الحديثة. هذا لا يعني أنني لم أكن أعرفها من قبل، فمعظمنا يعرف ماهية الحضارة الغربية، و كثير منا زار دولة أو أكثر من دول هذه الحضارة. و لكن ما يخص زيارتي هذه و ما يميزها عن زيارتي السابقة أنني كنت طوال فترة وجودي هناك متعايشا مع الألمان أنفسهم. فقد نزلنا في دورهم و بيوتهم، و التقينا شبابهم و شابتهم، و تحدثنا معهم في مختلف الأمور و القضايا.

لقد صار المواطن الأوروبي الآن يبيع الكهرباء لشركة الكهرباء في دولته! فهو ينتجها باستخدام الطاقة المتجددة كالشمس و الهواء، و يستخدم ما يحتاج منها في منزله و يبيع ما يزيد... إن لهذا الأمر لمعنى عظيم، أتدركونه؟ أن يصبح الإنسان منتجا بدلا من أن يبقى أبلها في مستوى الاستهلاك...
إن مشكلة مجتمعنا تكمن في نمطه الاستهلاكي. و لعل ضرب الأمثلة هو أحلى و أبسط ما يوصلكم إلى الفكر الذي أريد... إننا نفتخر مثلا باقتناء أحدث الأجهزة الخلوية، لا بل و نعبر عن سعادتنا لوجود أربع مشغلين لخدمة الهاتف النقال، معتقدين أن هذا يدل على تطور و تقدم المجتمع. دعونا من الكهرباء و الاتصالات، و لنذهب و نرى ما هو الحال في سوق السيارات و حتى في سوق الأطعمة و المأكولات... اذهب و شاهد الأسواق في شهر رمضان أو قبل بدايته بقليل. فما أن يحل الشهر الفضيل حتى نسمع بالراديو و نرى بالتلفاز و نقرأ في الصحف أن المواد و السلع التموينية متوفرة استعدادا لرمضان! و كأن هذا الشهر قد خصص للطعام و تخزينه بدلا من الامتناع أو التقليل منه. لا بل و أنك لترى أصنافا من الطعام التي لا تظهر إلا في هذا الشهر – و أنا ليس بصدد ذكرها هنا – و لكن ما يحز زيادة في النفس هو التهافت الشديد لحد الاقتتال من الناس على هذه السلع المختلفة.

إنني لا أدعو أبدا هنا إلى البقاء بعيدا عن ركب التطور الذي يشهده العالم. و لا أقصد بكلامي هذا أن أنتقد المجتمع الذي أنا جزء منه. و لكن جل ما أريد أن يعي كل فرد منا و خاصة نحن الشباب الحالة التي نعيش. لعللنا استطعنا إصلاحها و تغييرها لما هو أفضل، و هذا واجب علينا بغرض خدمة بلدنا. لا لأن نكون عالة عليها – نأخذ و لا نعطي – .

دعوني أنبهكم أنني لا أدرس الاقتصاد أو علم الاجتماع و لا حتى الشريعة. بل أدرس ما هو بعيد كل البعد عن هذه المواضيع — و إن كان للهندسة ارتباط بالاقتصاد — و لكن ما أقوم به هنا هو قراءة للواقع الذي أعيشه كشاب جامعي مثقف و مطلع.

إننا نرى الآن التهافت العظيم الذي يشهده سوق الأسهم و الأوراق المالية. حتى بات معظمنا، و من رجال الأعمال و حتى سائقو التكسي يشترون و يبيعون في هذا السوق. إن التهافت هذا ليس بخطأ بالطبع، و لكنة يرشدنا و يدلنا إلى ما يفكر به أفراد مجتمعنا و ما يميلون إليه. إنهم يميلون إلى الكسب السريع الذي لا يحتاج إلى أي عناء يذكر. فها أنت تبيع و تشتري و أنت جالس في مكانك! و لا تعلم، فللخسارة احتمال في هذه التجارة أيضا. و لكن ما أقصده هنا هو كسل المجتمع و قلة حركته لكسب قوته. إننا غير مستعدين للانخراط بمشاريع ذاتية صغيرة تعود علينا بالفائدة أولا و تكسبنا ثقة و احترام الناس ثانيا. و لو علمنا قصص نجاح العديد من الأشخاص في الغرب أو غيره لاندهشنا منها و لأثارت إعجابنا و تقديرنا... لقد كان لكل واحد منهم رؤية. آمن بها، و أراد أن يحققها بكل ما أوتي من قوة و إرادة. فها هو بيل غيتس كان يردد في شبابه دائما (أستطيع فعل أي شيء أضع كل تفكيري فيه)، و رفع شعارا عندما بدأت شركته الغنية عن التعريف بالعمل يقول (أعمل بكد و جهد، طور في منتجاتك، و اربح)!

و لنطير إلى اليابان، إلى شاب طموح اسمه سويكرو هوندا. استثمر كل ما لديه لإنشاء ورشة صغيرة، ليطور حلقة صمام تستخدم للسيارات. لقد كان طموحه أن يبيع عمله إلى شركة تويوتا الأمريكية. و لكن ما إن قدمه حتى رفضته الشركة لعدم توافقه مع مقاييسها. و لن أخوض هنا في السخرية التي تلقاها من زملائه، لأن هذا سيكون مدخلي في الوضع الاجتماعي الذي نعيش. المهم أن هوندا تابع عمله حتى قبلت تويوتا بقطعته. لكنه لم يكتفي بذلك، بل بدأ بصناعة الدراجات فالمحركات و تدرج حتى باتت شركته تفوق في معدل مبيعاتها شركة تويوتا بأكملها!

و هناك الكثير و الكثير من هذه القصص. و لكن لن أعجب بهؤلاء عندما أذكر قصة نجاح نبينا محمد –صلى الله عليه و سلم–. فنبينا هو أولى أن يكون قدوة لنا. و سأكتفي هنا بخاطرة لعلها تحرك ساكنا و تنبهنا إلى عظمة هذا النبي... لقد نزل وحي الإسلام على محمد –صلى الله عليه و سلم– وحده، و ها هو الإسلام يصدع في قلب 1,2 مليار مسلم يشكلون نحو خمس سكان العالم.

إن مشكلة قلة همتنا هذه ترجع إلى وضعنا الاجتماعي. فثقافة العيب منتشرة، تمنع شبابنا من العمل المهني من الحدادة و النجارة و حتى حمل الطوب... ما نريده هو الطب و الهندسة و الجلوس خلف الطاولات و إدارة المشاريع و إلى غير ذلك من الإعمال التي يعطي لها هذا المجتمع رونقا و احتراما!

ما علينا هو إلا نهتم بأفكار الناس عنا و ما يقولونه علينا. علينا أن نؤمن بما نقول و ما نفعل. علينا أن نفعل ما نفعل بحب و إخلاص و أمانة. و هذا ما سيحقق نجاحنا بإذن الله تعالى.

و نبقى في الشأن الاجتماعي و الأخلاقي. فها هو المواطن يمشي في الشارع، و الطالب يمشي في مدرسته أو جامعته، و كلاهما يلقيان ما يلقيانه على الأرض دون اكتراث أو إحساس بالذنب. و إذا أردت أن تنبههما أو تنصحهما، رأيتهما يصرخان في وجهك و لربما يضربانك. إن هذا الموضوع لموضوع خطير، يندرج تحت بندين: البند الأول و هو النظافة العامة. فكم خسرت مدننا و قرانا و أماكن ترفيهنا و حتى حدائقنا و متنزهاتنا رونقها و حلاوتها جراء السلوكيات غير المسؤولة من عدم الاكتراث بالنظافة العامة، و تخريب الممتلكات العامة و العبث بها. إن هذا التخريب و العبث يتراوح من الكتابة على الجدران و من تكسير الهواتف العمومية (و إن كان قد مضى على زمانها هذه الأيام) و حتى لصق الأوراق و الإعلانات على الأعمدة و الإشارات المرورية و الضوئية. ناهيك عن السلوكيات المزعجة و الخطيرة التي يقوم بها بعض الأفراد، فترى فردا يقطع الشارع و فوقه جسر للمشاة. حتى أنك تراه يقفز أمام عينك فوق السور الذي وضع لمنعه من قطع الشارع، أو تراه يتمشى بكل أريحية في الشارع أو يتحدث بهاتفه الخلوي! إن كل هذه السلوكيات تدخلني في البند الثاني و هو قلة وعي الفرد و ضعف إنتمائه لأرضه التي ترعرع فيها، و هي أحق أن يحافظ عليها من أن يحافظ على نفسه. و حقها في المحافظة عليها لا يقل عن حق منزله في المحافظة عليه.

إنني لم أشاهد أيا من هذه السلوكيات في رحلتي إلى ألمانيا. فالمواطن هناك ليس أقل حرصا على أرضه من بلديته أو دولته. و لهذا لم أر أي عامل نظافة في الشارع طوال أسبوعين في المنطقة التي نزلت بها. و لم أختنق قط عند دخولي للحمامات العامة هناك. إذ أن النظافة العامة (و لا أقصد الخاصة هنا) شيء مقدس هناك. أما الالتزام بقواعد السير، فحدث و لا حرج... إن الالتزام بها دلالة على أخلاق الفرد و تحضره. حتى أنني لم أسمع زميرا للسيارات إطلاقا! كما هو الحال هنا... فإذا هممت بالخروج في جولة في الحي الذي تقطن به لفاجأتك سيارة تكسي يقوم سائقها و بكل عزمه بوضع كفه على ضغطة زاموره ليعكر لك مزاجك آملا منك أن تستوقفه!

إنني و بكل صدق لا ألوم لا بلدي و لا دولتي على كل هذا. فهذه أمور لا حاجة لها فيها بالأموال و المشاريع لنصلحها. بل ألوم مجتمعنا قبل أن ألوم كل شخص يقوم بتلك الأفعال. لماذا؟ لأن المجتمع صامت يطبطب على كل هذه الأفعال دون أن ينتفض و يحاول أن يغير ما يستطيع أن يغيره.

أما إذا بقي الوضع كما هو، فما على الدولة إلا أن تفرض القانون و القصاص. دعوني أضرب لكم مثالا هنا من صلب حياتي حتى أريكم ما يمكن للقانون و السلطة أن تفعلا... إن حال جامعتي في مجمع باصاتها لا يختلف عن الحال في مجمعات الباصات الأخرى. فلا يوجد من ينظم الدور، فترى الشباب و الفتيات يتدافعون و يتعاركون و يحجزون للحصول على مقعد في الباص الذي سيعود بهم إلى ديارهم. و لكننا و في أحد الأيام تفاجأنا بالشرطة تنظم الدور في الصعود إلى الباصات. و بالتأكيد لم يجرؤ أي نشمي أن يعارك و يقفز من دوره... التزم الجميع بالدور... و قلت في نفسي (ما أحلى النظام و الترتيب)... و لكنني لم أفرح طويلا! لأنني نسيت أن أذكركم بالطرف الثاني من معادلة الركوب بالباص! إلا و هو سائق الباص... إذ لم يصبر أحد سائقي الباصات أمام الباصات الأخرى التي يركب فيها الطلاب باصا تلو الآخر، و راح إلى آخر الطابور، و فتح أبوابه... فهمَ طلابُ النفوس الضعيفة بالصعود إليه و مشى إلى وجهته مسرعا لعله يستطيع أن ينقل أكثر من جولة في هذا اليوم!

أعتقد أننا أشبعنا من تصرفات تشمئز لها النفوس. لا ندري أنضحك أم نبكي عليها. لقد حان الوقت لنصرخ صرخة واحدة يهتز لها مجتمعنا بأكمله، و من الصغير إلى الكبير... لنقول: إلى متى؟

و سأضطر إلى أن أدخل بعض الشيء إلى ناحية أخرى من جوانب الشأن الاجتماعي، لعل أن تكون هذه الناحية هي مدخلي إلى الشأن الأخير في حديثي و هو الشأن الديني. و هذه الناحية ما زالت متجذرة في عقول البعض منا، إلا و هي التحيز إلى فئة دون أخرى... و غالبا ما يكون الحيز هنا — أقصد في الشأن الاجتماعي – مبنيا على أسس عرقية بحتة.

لقد وصل الأمر في مجتمعنا أن لا تتزوج فلانة فلانا لأنه من غير أصلها. و اسمحوا لي أن أركز على أن كلمة الأصل هنا باتت و ما زالت دائرتها تضيق و تضيق، حتى وصلت في بعض الأحيان إلى المدني و المزارع أو البلدة و القرية و إلى غير ذلك من الأصول التي أنتم أدرى بها و أعلم. لا بل و قد وصل الأمر إلى أن الأصل هو من يقرر كل شيء عن فلان و فلانة. فهو يحدد ما إذا كانت الفتاة جميلة و ما إذا كان الرجل قويا و ما إلى ذلك من أمور و صفات و لربما أخلاق! إن كل هذا و غيره لا يدل إلا على سطحية المجتمع و ابتعاده كل البعد عن أقوى و أجل و أسمى أساسيات ديننا الحنيف، الذي قال

فيه جل و على: ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)).

أين نحن يا أيها الناس من هذه الآية الكريمة! إن حجتي هنا هي لا برأي أرده لي، و لا بقرار قمت باتخاذه و لا بفكرة خطرت في بالي، و لكن حجتي هي أقوى حجة: هي آية من القرآن الكريم، و غيرها العديد من الآيات و الأحاديث. و بعد كل هذا فإنك تصطدم بأناس ذوي عقول منيرة في العلم و الثقافة، و لكنها مظلمة كل الظلمة بأفكارها التي من المستحيل أن يطالها التجديد أو التغيير. إن هؤلاء يعتبرون التغيير في آرائهم و أفكارهم إهانةً و ذلا لهم. و لذلك فما لهم إلا أن يحتفظوا بتلك الأفكار و يورثوها جيلا بعد جيل. بل ترى أن جيلا جديدا منهم قد يلتزم بتلك الأفكار و يفتخر بها بقدر أشد و أكبر من آبائهم و أجدادهم! فإذا لم يغير القرآن العظيم — الذي غير أمة برمتها – ما في قلوبهم و عقولهم، فمن عسى أن يغيرها لهم!

لقد نسي مجتمعنا العديد من القيم التي كانت أمة الإسلام أشد من التزم بها. فمنها قيمة العمل و قد كنت تحدثت عنه في بداية المقال. فالعمل له شرف كبير في الإسلام ليس له مثله في غيرة من الأديان و الثقافات. فحري بنا أن نعمل و نتقن ما نعمل، لما في ذلك فائدة لنا و لمجتمعنا.

أما قيمة الجمال، فمن أين عساي أن أبدأ؟ إن الإسلام دين الجمال يكره القبح و ينفر منه. و من الجمال و قيمته نستشعر عظمة الخالق جل و على. و من الجمال و قيمته أيضا ما يمنعنا من التدمير و التخريب. و لا نشك أن مصطلح الجمال و الذي عرفه ديننا الحنيف قد ظلمه استخدامنا العرفي له، فضاع من جلاله الكثير و أصبح في وضعية هابطة، حتى أصبح مرادفا للتسيب الخلقي أو اللذات النازلة. تماما كما حصل مع مصطلح آخر و هو الحب الذي زوره أيضا استعمالنا له حتى صار مرادفا لدعارة الجسد و تفلت العلاقات. مع أن معناه الحقيقي هو بعيد كل البعد عن ذلك.

أما قيمة التنظيم و التخطيط و احترام الوقت فقد قذفناهما بعيدا و أخذ بعضنا يقفز فوق الآخر ليصل إلى أول الدور. و بالطبع فهو بنظر نفسه — و نظر بعض الآخرين — رجل و شهم و متميز عن الآخرين.

إن ديننا الحنيف يدعونا إلى الرجوع إلى كل هذه الصفات الخيرة و غيرها التي باتت منسية. و لكن ما ينسينا إياها هو ابتعادنا عن ديننا الذي هو ليس بدين صلاة و صيام فحسب، بل دين يدخل في كل كيفية من كيفيات الحياة التي نعيش. لقد بات شبابنا و شابتنا في ثلاث مجموعات لا رابع لهما. أولها هي تلك التي تدرس و تتعلم و ما لها في دينها من شيء إلا القليل. و ثانيها هي تلك المتفرغة للصلاة و

الصيام، منغلقة عن ركب الحياة و تطوراتها. أما ثالثهما و هي تشكل المجموعة العظمى، فهي التي لا تمت إلى العلم بصلة و لا إلى الدين بصلة.

إننا نفتقر أشد الافتقار إلى شباب و شابات يتحلون بالوسطية. يتعلمون و يجارون التقدم الهائل الذي تشهده الحضارة الإنسانية و لكنهم و بنفس الوقت ملتزمون بقواعد و أخلاق دينهم السامية، و يحافظون على صلتهم مع خالقهم بالصلاة و الصيام و الدعاء. هؤلاء هم أفضل من ينقل صورة الإسلام للعالم أجمع، ليثبتوا زيف الافتراءات التي يتعرض لها ديننا الحنيف.

إن على كل فرد منا أن يعلم أن العصر الذي نعيش هو عصر التميز و الإبداع و المبادرة. التميز في كل مجال من مجالات الحياة: في الدراسة، في الشخصية، في الأعمال اللامنهجية و التطوعية. و الإبداع بكل ما هو جديد على الساحة. و المبادرة بخدمة المجتمع الذي نعيش فيه.

إن الموضوع يطول و يطول، و لا يسعني أن أذكر كل ما في جعبتي من الكلام و الآراء. و لكني و في نفس الوقت لا أنكر أنني قد شفيت غليلي بما كتبت. إذ إن الكتابة تريحيني و تريح بالي الذي لا يفتأ تفكيرا بهذه الأمور. و ما تفكيري و اهتمامي بهذا كله إلا دلالة على وجودي في هذا المجتمع و رغبتي العظيمة في المشاركة في إصلاحه و تطويره و تقدمه.

و في الختام، فإنني أؤكد على ضرورة الحوار و الاتفاق و احترام الرأي الآخر. و نسأل الله أن يوفق مجتمعنا لما هو خير و يهديه سبل الرشاد. و إني و من هذا المنبر الحر أدعو الجميع إلى الحركة و التغيير لما هو أفضل لبلدنا العزيز و أمتنا الكبيرة. و الله على ما أقول شهيد.

بقلم: زيد عصفور

بدأ: 2005/11/3
انتهى: 2006/3/2